

مراحل نشأة الكلام الانساني

الدكتور جعفر دك لثباب
الاستاذ في معهد للغة والادب العربي
- جامعة الجزائر -

1 - ان يكون تعبيراً عما يمكن ادراكه بالعين والاذن معا ، أي ان يكون مشخصاً جداً ومحدداً بحاستي السمع والبصر بأن واحد .

2 - ان يكون من الناحية الصوتية كلمة واحدة ، تنفيذ من ناحية المعنى كلاماً تاماً أي جملة .

3 - ان يكون مؤلفاً من مجموعة من الاصوات غير المنفصلة بعضها عن بعض ، فيلغظ في مقطع صوتي واحد . وعلى ضوء تلك الصفات الموضوعية لاصل للكلام الانساني ، تمنا في مقالة ، تحديد اصل للكلام الانساني ، (3) بتمييز الصيغة اللغوية - الاصل للكلام الانساني . وقررنا ان الصيغة للشخصية

دعونا في مقالة ، للصوامت والصوائت في العربية ، (1) الى تبني المنهج التاريخي العلمي في دراسة اللغات . وافرنا الى ان الاسس النظرية لهذا المنهج تنبع من تقاليد علم اللغة العربية (التي استنبطناها لدى دراسة تاريخ الابحاث اللغوية للعربية على ضوء النظريات اللغوية الحديثة) وتستند بالتحديد الى اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية الذي بدوره ابن جني وعبد القاهر الجرجاني في نظريتين لغويتين متكاملتين .

وحددنا في مقالة ، للخصائص المميزة لاصل للكلام الانساني ، (2) الصفات الموضوعية التي يجب ان يتصف بها اصل أي كلام انساني ، وهي التالية :

-
- (1) المنشورة في مجلة « اللسان العربي » - المجلد التاسع عشر - الجزء الاول لعام 1982 .
(2) المنشورة في مجلة « المعرفة » بمشق ، العدد 229 آذار (مارس) 1981 .
(3) المنشورة في مجلة « المعرفة » بمشق - العدد 237 تشرين الثاني (نوفمبر) 1981 .

للمصرفة للفعل في الزمن الماضي للشخص الثالث المستعملة في خبر غير ابتدائي هي أصل الكلام الانساني.

ونعود في هذه المقالة الى البحث في نشأة الكلام الانساني وذلك للكشف عن المراحل والاطوار التي مرت بها . كما سنبحث مجددا في الصيغة اللغوية - الاصل للكلام الانساني .

اولا - مراحل تشكل النظام اللغوي واكتماله :

• يقضي المنهج التاريخي العلمي بأن يقوم البحث النظري العام في نشأة اللغات على التلازم في الوجود بين اللغة والتفكير ووظيفة الاتصال . وبما أن اللغة الصوتية (لغة الكلمات) كانت دائما اللغة الانسانية الاصلية كوسيلة لاتصال الناس بعضهم ببعض . فان اللغة في نشأتها الاولى كانت منطوقة (4) .

ولما كان النظام اللغوي يتألف من جانبين : صوتي (مادي) ودلالي (معنوي) ، فمن الطبيعي أن ينطلق البحث في نشأة اللغات من تحليل الجانب المادي (الصوتي) للغة ، لينفذ من خلاله الى تحليل الجانب الدلالي . واذا أخذنا بالاعتبار أن خطر السير العام لتطور التفكير الانساني انطلق من المشخص المحدد واكتمل بالانتقال الى المجرد العام ، يتبين لنا أن ادراك العلاقة للذهنية بين الصوت وما يرمز اليه كان البداية الاولى في تكون التفكير الانساني . ويعني ذلك بالضرورة أن الكلام الانساني قد مر بطور أولي كانت فيه للصيغة اللغوية - الاصل للكلام الانساني عبارة عن محاكاة

لاصوات الحيوان والطبيعة ، لان تلك المحاكاة كانت بمثابة قرينة تساعد الانسان البدائي القديم في الادراك الذهني للعلاقة بين الصوت وما يرمز اليه ، بحيث ينبثق المعنى من الصوت بشكل يكاد يكون عفويا في الموقف الكلامي الذي يرتبط به ، مما يجعل الصيغة اللغوية - الاصل للكلام الانساني - تؤدي وظيفة اتصال . ويعني ذلك أن تلك الصيغة كانت بالضرورة صيغة لغوية حقيقية تؤدي وظيفة اتصال ولم تكن مطلقا صيغة مثالية مفترضة غير مرتبطة بوظيفة الاتصال .

تقسم للكلمات في أية لغة الى مجموعتين كبيرتين :

أ - كلمات مستقلة بالفهم
autosemantic WORDS

ب - كلمات غير مستقلة بالفهم
Syntactic WORDS

وتبعا لوجود امكانية للتعبير عن الربط الاسناني بواسطة صيغة الكلمة المستقلة بالفهم وحدها بحيث تفيد جملة وتؤدي بالتالي وظيفة اتصال . يمكن تقسيم جميع الكلمات المستقلة بالفهم الى فئتين :

أ - الصيغ الشخصية للمصرفة للفعل (ويقابلها للفعل العربي) .

ب - جميع الكلمات المستقلة بالفهم ما عدا الصيغ الشخصية للمصرفة للفعل (ويقابلها الاسم العربي) .
ان الكلمات من الفئة (ب) ليست كلمات - جملة ، لذا لا تتوافر فيها الخاصة الثانية من الخصائص المميزة لأصل الكلام الانساني ، ولا تصلح بالتالي أن تكون

(4) رجع الى مقالة « الخصائص المميزة لأصل للكلام الانساني » المشار اليها اعلاه .

3 - الانتقال من التفكير القائم على مفاهيم
مشخصة جدا الى التفكير القائم على مفاهيم مجردة تماما .

تطرق الدكتور علي عبد الواحد وافي الى بحث
(المراحل الاولى التي اجتازتها اللغة الانسانية
الاولى) (6) .

نذكر ان اللغة نشأت ناقصة ساذجة مبهمه في
نواحي اصواتها ومطلولاتها وقواعدها ، ثم سارت
بالتدريج في سبيل الارتقاء . وأشار الى ان الباحثين
اختلفوا اختلافا كبيرا في بيان المراحل التي اجتازتها
اللغة الانسانية ، ونظروا الى الموضوع من أربع نواح
هي التالية :

أ - الاصوات .

ب - دلالة المفردات على معان جزئية أو كلية

ج - ظهور أقسام للكلم

د - قواعد الصرف والنحو .

أ - البحث في مراحل اللغة الانسانية من الناحية
الصوتية : ذكر د . وافي ان هذا البحث يستهدف الكشف
عما كانت عليه أصوات اللغة الانسانية من مبدأ نشأتها
وعن مراحل ارتقاؤها . وميز ثلاث مراحل هي :

صيفا لغوية لأصل الكلام الانساني . أما الكلمات من
اللغة (أ) فيمكن ان تكون كلمات - جملا ، وبذا تتوافر
فيها الخاصة الثانية من الخصائص للميزة لأصل الكلام
الانساني ، ويمكنها من حيث المبدأ ان تكون صيفا لغوية
لأصل الكلام الانساني ، اذا توافرت فيها الخاصتان الاولى
والثالثة . وكنا قد قررنا ان الصيغة الشخصية المصرفة
تلفعل في الزمن الماضي الخاصة بالشخص الثالث
والمستعملة في خبر غير ابتدائي هي الصيغة اللغوية -
الأصل للكلام الانساني . وأشارنا الى ان تلك الصيغة -
الأصل كانت تلفظ في مجموعة واحدة من الاصوات غير
المنفصلة بعضها عن بعض ، لان أعضاء النطق لدى
الانسان القديم لم تكن تسمح له بالنطق بشكل مغاير (5)
وهذا يعني ان الصيغة - الأصل للكلام الانساني كانت
في البداية تحاكي بالضرورة أصوات الحيوان .

اننا نرى - انطلاقا من المنهج التاريخي للعلمي -
ان الخط العام لتشكل النظام اللغوي واكتماله ، ابتداء
من الفعل - الأصل وانتهاء بنظام كامل للاصوات
والدالات ، هو التالي :

1 - الانتقال من مجموعة الاصوات المنمجة
بعضها ببعض الى مجموعة الاصوات المنفصلة بعضها
عن بعض .

2 - الانتقال من الكلمة - الجملة الى الجملة المؤلفة
من كلمات منفصلة .

(5) ارجع الى مقالة (تحديد أصل للكلام الانساني) المشار اليها اعلاه .

(6) (علم اللغة) - دار نهضة مصر - القاهرة - الطبعة السابعة / ص - 110 - 118 /

1 - مرحلة الصراخ . حيث لم يكن في أصوات اللغة الانسانية أصوات صائتة ولا أصوات صامتة (7) .
وانما كانت مؤلفة من أصوات مبهمة تشبه أصوات التعبير الطبيعي عن الانفعال وأصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة والأشياء .

2 - مرحلة المد ، حيث ظهرت الاصوات الصائتة في اللغة الانسانية .

3 - مرحلة المقاطع ، حيث ظهرت الاصوات الصامتة .

اننا نرى أن الكلام المكون من مجموعة أصوات مندمجة كان وسيلة الاتصال بالنسبة للإنسان البدائي في مرحلة نشأة أصل الكلام الانساني . وقد تميزت في تلك المرحلة مجموعات صوتية مندمجة تتمتع كل مجموعة منها بمعنى مستقل نسبيا هو معنى فعل - أصل . وكانت الكلمة تحمل معنى الجملة ، لأن الكلام الانساني في نشأته الاولى لم يكن يشتمل الا على الكلمات - الجمل . ولم تتبلور المجموعات الصوتية ذات المعنى المستقل في كلمات منفصلة - يمكن أن تتشكل من تاليها جمل تستطيع أن تعبر عن مفاهيم ومحاكمات مختلفة - الا في مرحلة لاحقة من التطور ، حين ظهر الكلام المكون من أجزاء منفصلة . ويعني هذا أن نشأة الكلام الانساني مرت بمرحلتين صوتيتين متميزتين :

المرحلة الاولى - مرحلة الكلام المكون من أجزاء متصلة : ولم تتميز بعدم وجود وحدات صوتية مستقلة فحسب ، بل تميزت أيضا بشكل أو بآخر بعدم تبلور مفردات اللغة المختلفة بشكل دقيق . ولم تكن توجد (ولم يكن بالامكان أن توجد) في تلك المرحلة كلمات تتميز بعضها عن بعض من حيث البنية الصوتية والمعنى ، لأنه لم تكن توجد مفاهيم مجردة . أما التعبير عن المضمون المشخص والمضمون المجازي للظواهر للانكار (التي لا تتعدى كونها مجموعة من التصورات والاحاسيس عن الأشياء التي ينصب عليها الفعل ، أو عن الوسائل اللازمة للوصول الى تلك الأشياء أو عن الهدف من الفعل ونحوه) فكان يتم في تلك الفترة بواسطة مجموعات من الاصوات غير المتميزة أو المتميزة قليلا بعضها عن بعض .

المرحلة الثانية - مرحلة الكلام المكون من أجزاء منفصلة : لقد تعرض نشاط دماغ الإنسان التحليلي - التركيبي الى تغيير جوهري منذ الفترة التي سبقت مباشرة ظهور الكلام المكون من أجزاء منفصلة ، حين بدأت تبرز بالفعل بعض ملامح الكلام المؤلف من أجزاء منفصلة . وتم ذلك عندما بدأ كل من المتكلم والمخاطب (السامع) يميز ضمن الاصوات المندمجة بعض العناصر التي يتألف الكلام منها والتي استخدمت فيما بعد كاجزاء منفصلة في الجملة .

ونستنتج من ذلك أن الكلمة لم تكن بداية الكلام المكون من أجزاء منفصلة ، بل كانت نتيجة لتشكل

(7) يستخدم د . وافي مصطلح (أصوات المد) بدلا من (الاصوات الصائتة) و (الاصوات الساكنة) بدلا من (الاصوات الصامتة) .

أجزاء منفصلة ، أي أنها الفترة الأخيرة من مرحلة الكلام المكون من أجزاء متصلة . وبدأت تتميز فيها في الكلام الاصوات الصائتة ، مما أدى الى خلطة وحدة المجموعة الصوتية المندمجة التي تألفت منها الكلمة - الجملة . وكان ذلك تمهيدا ضروريا مكن من ظهور نوع جديد للكلمة هو الكلمة - المتصلة التي لا تؤلف جملة وحدها ، ونوع جديد للجملة هو الجملة المؤلفة من كلمتين (ثم أكثر) متصلتين لفظا عن طريق التماثل في النطق وقد تتألف كل منهما من وحدة صوتية مندمجة .

مرحلة المقاطع : هي مرحلة للكلام المكون من أجزاء منفصلة . وقد تميزت الصوائت فيها نهائيا في الكلام وتبلورت كوحدات صوتية متميزة . وأدى ذلك بدوره الى بلورة الاصوات الصائتة كوحدات صوتية مستقلة ومتميزة . وبذا اكتمل تشكل النظام الصوتي للغة . وظهر بالنتيجة نوع جديد للكلمة هو الكلمة - المنفصلة التي لا تؤلف وحدها جملة والتي يمكن أن تتألف من أكثر من مقطع صوتي واحد ويشتمل كل مقطع منها على صوت صائت . كما ظهر نوع جديد للجملة هو الجملة المؤلفة من كلمتين (ثم أكثر) منفصلتين لفظيا ومرتبطين بالاسناد الى بعضهما بعضا .

ب - البحث في مراحل اللغة الانسانية من ناحية دلالة المفردات على معان جزئية او كلية :

ذكر د . وافي أن هذا للبحث يستهدف بيان أيهما سبق ظهورا من الآخر . وأورد أن فريقا من العلماء وعلى رأسه مكس مولر يرى أن اللغة الانسانية قد بدأت بالفاظ دالة على معان كلية ، ثم انشعبت عن هذه الفاظ

الكلام المؤلف من أجزاء منفصلة وثمره لتطور المجتمع البشري خلال آلاف السنين . ويعني ذلك أن الكلمة والجملة نشأتا بطريق التطور ، وأن الوحدة الحقيقية للكلام لم تكن الكلمة بل كانت الجملة . هذا ويفترض وجود كل من الكلمة والجملة وجودا آخرى ، لأن وجود كل منهما يعتبر شرطا لوجود الأخرى . فالملاقة بين الكلمة والجملة هي العلاقة بين الجزء والكل : فالكل لا يتألف من مجرد اجتماع الأجزاء الجاهزة المكونة له ، بل يتألف من الأجزاء التي نحصل عليها نتيجة تفكك الكل ، كما أن الكل يتطور مع تطور الأجزاء . والخط الاساسي لذلك التطور هو الاتجاه في السير بشكل عام من التركيبات غير القابلة للتجزئة ، او التي تتجزأ قليلا الى تركيبات قابلة للتجزئة الى أجزاء محددة المعنى بشكل أو آخر ، وتعتبر عن مفاهيم ، ويمكن أن ترتبط بعضها ببعض وفقا لضوابط معينة .

وعلى ضوء ذلك ، سنعمد الى مناقشة المراحل الثلاث (للصراخ ثم المد ثم للمقاطع) المشار اليها أعلاه .

مرحلة الصراخ : هي مرحلة الكلام المكون من أجزاء متصلة . ولم يكن للكلام فيها يشتمل على وحدات صوتية مستقلة ، بل كانت الكلمة - الجملة تتألف من مجموعة صوتية مندمجة شبيهة باصوات الحيوان . ويعني ذلك أن الاصوات اللفظية لم تكن تعرف بعد الاصوات الصائتة والاصوات الصائتة كوحدات صوتية مستقلة .

مرحلة المد : هي مرحلة انتقال الى الكلام المكون من

لل كلمات الدالة على المعاني الجزئية . بحث مولر في اصول الكلمات في اللغات الهندية الاوربية . وظهر له ان مفردات هذه اللغات جميعها ترجع الى خمسمئة اصل مشترك ، وأن هذه الاصول تمثل اللغة الانسانية الاولى التي انشعبت منها هذه الفصيلة ، فهي لذلك تمثل اللغة الانسانية في اقدم عهودها . وتبين له من تحليل هذه الاصول انها تدل على معان كلية .

وقد أشار د . وافي الى أن أكبر خطأ وقعت فيه هذه النظرية هو ذهبها الى أن تلك الاصول الخمسمئة تمثل اللغة الانسانية الاولى . فهذه الاصول تدل على معان كلية ، ومن الواضح أن ادراك للمعاني الكلية يتوقف على درجة عقلية لا يتصور وجود مثلها في فاتحة النشأة الانسانية . وقد أجمع علماء الانتوغرافيا الذين قاموا بدراسة الامم البدائية في أمريكا وأستراليا وأفريقيا على ضعف عقلياتها بهذا الصدد وعجزها عن ادراك المعاني الكلية في كثير من مظاهرها . وكان لهذه العقلية صدى كبير في لغاتها ، فلا نكاد نجد في كثير منها لنفا يدل على معنى كلي . لذا يرى المحدثون من علماء اللغة أن الاصول الخمسمئة المشار اليها لا تمثل اللغة الانسانية الاولى في شيء ، بل انها بقايا لغة حديثة قطعت شوطا كبيرا في سبيل الرقي والكمال ، ولم تصل اليها الامم الا بعد أن ارتقت عقلياتها ونهض تفكيرها .

لننا نرفض نظرية مكس مولر (القائلة بان اللغة الانسانية قد بدأت بالفاظ دالة على معان كلية ثم انشعبت عنها الكلمات الدالة على المعاني الجزئية) ، لانها تناقض الخط العام لبدلية تشكل النظام اللغوي واكتماله الذي يقوم على مبدأ الانتقال من التفكير القائم

على مفاهيم مشخصة جدا الى التفكير القائم على مفاهيم مجردة تماما . لذا فاننا نؤكد ، انطلاقا من المنهج التاريخي العلمي ، أن المفردات في المرحلة الاولى (مرحلة الكلام المكون من أجزاء متصلة) لم تكن قد تبلورت بشكل دقيق . فكانت للكلمة - للجملة ذات معنى واحد مرتبط بسياق الحياة الواقعية . أما في المرحلة الثانية (مرحلة الانتقال الى الكلام المكون من أجزاء منفصلة) فقد بدأت الكلمة - المتصلة تتباعد بالتدريج عن ارتباطها بسياق الحياة الواقعية وعن التعبير المشخص عن الحقائق المرئية والمسموعة . لذا برزت حاجة ملحة لوجود نظام قواعدي للغة .

وفي المرحلة الثالثة (مرحلة الكلام المكون من أجزاء منفصلة) أصبحت الكلمات منفصلة بعضها عن بعض تماما ، وتعبّر عن مفاهيم عامة مجردة ومحاكمات مختلفة .

ج - البحث في مراحل اللغة الانسانية من ناحية ظهور اتسام الكلم :

ذكر د . وافي أن هذا البحث يستهدف بيان اسبقية ظهور كل من الاسم والصفة والفعل والحرف في اللغة الانسانية ، وأن أشهر نظرية بهذا الصدد هي نظرية الاستاذ ريبو التي تقرر أن الصفة هي اول ما ظهر في اللغة الانسانية وتلتها أسماء المعاني وأسماء الذوات ، ثم ظهرت الافعال ولختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف . وقد انتقد د . وافي هذه النظرية لانها تقرر أن الصفات كانت أسبق ظهورا في اللغة الانسانية من أسماء الذوات .

لننا نرفض نظرية ريبو لان الخط العام لتشكل النظام اللغوي واكتماله يقضي بالانتقال من الكلمة - الجملة الى الجملة المؤلفة من كلمات منفصلة . وكان هذا الخط العام للتطور اللغوي موازيا في الوقت نفسه للانتقال من التفكير القائم على مفاهيم مشخصة جدا الى التفكير القائم على مفاهيم مجردة تماما . لذا فان الصفات واسماء للمعاني التي تعبر عن مفاهيم مجردة تماما لا بد ان تكون نشأتها في آخر مراحل تطور اللغة واكتمالها وليس في المراحل الاولى لنشأة اللغة الانسانية . هذا وقد اثبتنا اننا الى ان جميع الكلمات المستقلة بالفهم (ما عدا الصيغة الشخصية للمصرفة للفعل) لا تصلح ان تكون صيغا لغوية لاصل للكلام الانساني . كما حددنا ان للصيغة الاولى - الاصل للكلام الانساني هي صيغة الفعل للمصرفة في الزمن الماضي للشخص الثالث المستخدمة في خبر غير ابتدائي ، لانها الصيغة التي تمثل للكلمة - الجملة المرتبطة بسياق كلامي واحد شخصي .

د - البحث في مراحل اللغة الانسانية من ناحية تتعلق بقواعد الصرف والنحو : ذكر د . واتي ان أشهر نظرية بهذا الصدد هي النظرية التي قال بها شليف وتابعه فيها جمهرة كبيرة من علماء اللغة . وهي تنقسم للغات الانسانية من هذه الناحية الى ثلاثة اقسام :

1 - اللغات المتصرفة - اي المعربة / flexional .
تمتاز من ناحية الصرف بان كلماتها تتغير معانيها بتغير ابنيتها . ومن ناحية النحو تمتاز بان اجزاءها يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة تدل على مختلف العلاقات .

2 - اللغات اللصقية / agglutinative /

تمتاز من ناحيتي الصرف والنحو بان تغيير معنى الاصل وعلاقته بما عداه من اجزاء الجملة يشار اليهما بحروف تلصق به . بغض هذه الحروف ليس له دلالة مستقلة ، ولكن معظمها كان في الاصل ذا دلالة ثم فقدا وأصبح لا يستخدم الا كحروف مساعدة للدلالة على تغيير معنى الاصل الذي تلصق به او للاشارة الى علاقته بما عداه من اجزاء الجملة .

- اللغات المعازلة / isolating / أو غير المتصرفة

/monosyllabic/. تمتاز من ناحية الصرف بان كلماتها غير قابلة للتصرف لا عن طريق تغيير البنية ولا عن طريق لصق حروف بالاصل ، وكل كلمة تلازم صورة واحدة وتدل على معنى ثابت لا يتغير . وتمتاز من ناحية النحو بعدم وجود روابط بين اجزاء الجملة للدلالة على وظيفة كل منها وعلاقته بما عداه . وانما توضع هذه الاجزاء بعضها بجانب بعض ، وتستفاد وظائفها وعلاقاتها من ترتيبها او من سياق الكلام . وسميت هذه اللغات (بغير المتصرفة) لان كلماتها لا تتصرف ولا يتغير معناها ، و (بالمعازلة) لانها تعزل اجزاء الجملة بعضها عن بعض ولا تصرح بما يربطها من علاقات .

ويؤيد اصحاب هذه النظرية ان اللغة الانسانية من مبدأ نشأتها كانت من النوع الثالث (غير متصرفة) ، ثم ارتقت الى النوع الثاني (لصقية) ، ولم تصل الى حالة النوع الاول (متصرفة) الا في آخر مرحلة قطعها في هذا السبيل .

طريق التسلسل المتعاقب للكلمات غير المتغيرة - قد
 هيأت الظروف لنشأة النظام القواعدي للغة . وقد تبلور
 النظام القواعدي وأخذ شكلا ثابتا في الشواهد الكتابية
 القديمة مع اكتمال تبلور الفكر الانساني المجرد . وبذا
 يمكن القول ان الكلام المكون من أجزاء منفصلة بالمعنى
 الكامل للكلمة لم يكتمل الا حين اكتمل النظام القواعدي
 للغة . في المرحلة الاولى من نشأة الكلام الانساني
 كانت للكلمات معان مشخصة فقط ، ولم يكن لها سوى
 ذلك المعنى . كما ان الكلمات لم تكن تحمل أي معنى
 قواعدي ولم يكن لها بالتالي صيغ قواعدية
 مختلفة . وبنتيجه عمل الدماغ التجريدي
 الطويل . تعلم الناس ان يجلسوا ويركبوا
 المناميم - علاقات المكان بالنسبة للأشياء ،
 وعلاقات العدد . ونحوه . وقد بلغ الكلام المكون من
 أجزاء منفصلة ذروة اكتماله حين بلغ تطور اللغة والتفكير
 مرحلة نشأت فيها أقسام الكلم المنفصلة ، وتبلورت
 كمفهوم قواعدي حالات الاعراب التي تعبر عن العلاقات
 بين الكلمات وبالتالي بين الأشياء في العالم الموضوعي
 (الخارجي) .

ونعود الآن الى مناقشة نظرية شليفل .

١ - اللغات العازلة أو غير المتصرفه : تبين لنا ان
 الكلام الانساني في نشأته الاولى لم يكن يشتمل الا على
 الكلمات - الجمل التي تمتلك صيغة واحدة ليس فيها
 ما يشير الى الجنس أو العدد أو الشخص أو أقسام الكلم
 أو حالة الاعراب . وسمينا هذه المرحلة الاولى التي مر
 بها الكلام الانساني مرحلة الكلام المكون من أجزاء
 متصلة . وقد كانت بنية اللغات في تلك المرحلة غير
 متصرفه .

اننا نرى ، انطلاقا من المنهج التاريخي العلمي ،
 ان الكلمات نشأت تاريخيا بنتيجة التطور ، وكانت
 صيغتها في البدء ثابتة (غير متغيرة أي مبنية) ، ولم
 تكن تشتمل على أي دلائل شكلية تشير الى الجنس أو
 العدد أو الشخص أو أقسام الكلم أو حالة الاعراب .
 كما ان الكلمات في بداية نشأة الكلام الانساني لم تكن
 تشكل نظاما صرفيا من الصيغ المتعددة ، بل كانت كل
 كلمة تمتلك صيغة واحدة . فلم تكن توجد صيغ
 متعددة للكلمة الواحدة ، بل كانت هناك صيغ متعددة
 لكلمات متعددة . ولم تكن الكلمات ترتبط فقط بشكل
 وثيق بسياق كلامي واحد ، بل كانت أيضا تدخل في
 سياق كلامي واحد مرتبط بالنشاط الواقعي للانسان .
 أي ان معنى الكلمة يحدده مجمل الحقائق التي يتوصل
 الانسان اليها بشكل شعوري . وهذا يعني انه لم تكن
 توجد حينئذ الكلمة المفردة المجردة ذات المعاني
 المتعددة ، بل كانت توجد للكلمة ذات المعنى الواحد
 المحدد والمرتبطة بسياق الحياة الواقعية .

ثم اخذ الأمر يتغير بشكل جوهري نظرا لان عملية
 اتصال الناس بعضهم ببعض بدأت تنفصل بالتدريج
 عن عملية نشاطهم في الواقع المحيط بهم وصارت تحمل
 صفة مستقلة نسبية . ولكن ذلك لم يمنع استمرار
 الارتباط المباشر لعملية الاتصال بالنشاط الواقعي
 المرتبط بالأشياء التي توجد ضمن مجال ما يراه ويسمعه
 الناس المتخاطبون . وبرزت الحاجة الملحة لوجود
 نظام قواعدي للغة لدى الاعتماد عن التعبير المشخص
 عن الحقائق المرئية والمسموعة .

ان الحاجة لوجود وسائل تمكن من تحديد معاني
 اصول الكلمات - التي صارت تتشكل الجمل منها عن

والدلالات . ويعني ذلك أن مراحل اكتمال اللغة يجب ألا تمكس فقط مراحل اكتمال النظام القواعدي للغة (صرف اللغة ونحوها) ، بل يجب أن تعكس أيضا مراحل اكتمال نظام الاصوات اللغوية ودلالة المفردات في اللغة وأقسام الكلم فيها .

ثانيا - عودة الى الصيغة اللغوية - الاصل للكلام الانساني :

كنا قد أثبتنا أن الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي للشخص الثالث المستعملة في خبر غير ابتدائي هي أصل الكلام الانساني . وفي ضوء المراحل التي حدثنا عنها لتشكل النظام اللغوي واكتماله ، سنعمد أثناء الى تحليل الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي الخاصة بالشخص الثالث والمستعملة في خبر غير ابتدائي . لدى تحليل تلك الصيغة يتبين لنا ما يلي :

1 - من الناحية الصوتية : يمكن أن تكون الصيغة اللغوية - الاصل عبارة عن محاكاة لاصوات الحيوان او الطبيعة . ولما كانت حنجرة الانسان البدائي القديم شبيهة بحنجرة بعض فصائل الحيوان من حيث بنيتها التشريحية - وفيزيولوجية عملها في اصدار الاصوات ، فاننا نرجح أن الانسان قلد أول ما قلد أصوات تلك الفصائل من الحيوان التي تصدر أصواتا يمكن لجهاز التصويت لديه محاكاتها . لذا فإن الصيغة اللغوية - الاصل ، التي قلد فيها الانسان أصوات تلك الفصائل من الحيوان ، كانت تتألف من مجموعة أصوات مندمجة بعضها ببعض ويتم للنطق بها في مقطع صوتي واحد .

ب - اللغات اللاصقية : قررنا أعلاه أن الكلام المكون من أجزاء منفصلة بالمعنى الكامل للكلمة لم يكتمل الا حين اكتمل للنظام القواعدي للغة . ويعني ذلك أن الكلام الانساني قد مر بمرحلة ثانية سميناهما فترة الانتقال الى الكلام المكون من أجزاء منفصلة . وقد كانت بنية اللغات في تلك الفترة لاصقية لان الجملة صارت فيها تتألف عن طريق اللصق من كلمات غير متغيرة من ناحية ، وغير منفصلة بعضها عن بعض تماما من ناحية ثانية .

ج - اللغات المتصرفة او المعربة . كانت مرحلة الكلام المكون من أجزاء منفصلة هي المرحلة الثالثة التي مر بها الكلام الانساني . ونتيجة لاكتمال النظام القواعدي للغة ، تميزت بظهور الكلمات المنفصلة وبروز الجمل التي تتشكل من تأليف تلك الكلمات لذا صارت بنية اللغات في هذه المرحلة متصرفة .

ولا بد من الإشارة هنا الى أن تطور بنية اللغات أخذ اشكالا مختلفة . فبعض اللغات سار وفق هذا الاتجاه في التطور ، في حين أن لغات أخرى بقيت عازلة وتطور نظامها (بنيتها) بتغيير طريقة العزل فيها ، كما بقيت لغات أخرى لاصقة وتطور نظامها بتغيير طريقة اللصق فيها . ونرى أن جميع أنماط اللغات (العازلة واللاصقة والمتصرفة) هي أنظمة لغوية مكتملة ، وقادرة على أن تكون وسيلة للاتصال والتعبير عن الإنكار . لذا فاننا نرفض بشكل جازم تصنيف بعض اللغات على أنها راقية وتصنيف لغات أخرى على أنها منحلة (كما فعل شليف) .

ونؤكد أخيرا أن اللغة نظام كامل للاصوات

ثم انتقل الانسان في فترة لاحقة تطورت فيها امكانياته النطقية الى تقليد اصوات بقية فصائل الحيوان واصوات الطبيعة . ولم تعد الصيغة اللغوية - الاصل حينئذ تنطق في مقطع صوتي واحد .

ويعني هذا أن الطور الاول في نشأة الكلام الانساني (الذي كانت فيه الصيغة اللغوية - الاصل للكلام الانساني عبارة عن محاكاة لاصوات الحيوان او الطبيعة) قد مر بالضرورة بمرحلتين :

١- المرحلة الاولى : كانت فيها الصيغة اللغوية - الاصل عبارة عن محاكاة لاصوات بعض فصائل الحيوان التي تمتلك جهازا للتصويت قريبا من جهاز التصويت عند الانسان القديم . لذا كانت تلك الصيغة تلفظ في مقطع صوتي واحد .

ب - المرحلة الثانية : ظهرت فيها صيغة لغوية - اصل جديدة نتيجة محاكاة اصوات فصائل أخرى من الحيوان لا تملك جهازا للتصويت قريبا من جهاز التصويت الانساني ، أو نتيجة محاكاة اصوات الطبيعة . لذا كانت الصيغة اللغوية - الاصل الجديدة لا تلفظ في مقطع صوتي واحد ، بل تلفظ في أكثر من مقطع صوتي . ولم يدخل الانسان هذه المرحلة الا بعد أن تطور جهاز النطق عنده ، منذ أن تمكن من تحطيم الوحدة الصوتية المنعقدة للصيغة اللغوية - الاصل الاولى التي ظهرت في المرحلة الاولى نتيجة محاكاة اصوات فصائل الحيوان التي أمكنه تقليد اصواتها .

2 - من حيث وظيفة الاتصال : تؤدي الصيغة

اللغوية - الاصل . في المرحلة الاولى من الطور الاول لنشأة الكلام الانساني ، وظيفة اتصال ضيقة جدا . وذلك لانها ترتبط بموقف كلامي محدد ، يكون فيه كل من المتكلم والمخاطب قد سمع الصوت وشاهد للحيوان الذي قام باصداره . ولا يتحقق ذلك الا في خبر غير ابتدائي . وفي المرحلة الثانية من الطور الاول تتوسع نسبيا دائرة وظيفة الاتصال التي تؤديها الصيغة اللغوية - الاصل الجديدة نتيجة محاكاة اصوات بقية فصائل الحيوان ومحاكاة اصوات الطبيعة .

3 - من حيث تلازم اللغة والتفكير : تمثل الصيغة اللغوية - الاصل في المرحلة الاولى من الطور الاول لنشأة الكلام الانساني بداية التفكير الانساني . وذلك بإدراك الشخص الثالث (غير المتكلم وغير المخاطب) ، وهو الحيوان الذي يصدر الصوت الذي تحاكيه الصيغة اللغوية - الاصل . وفي المرحلة الثانية من الطور الاول لنشأة الكلام الانساني يتطور التفكير الانساني نتيجة للتوسع في ادراك الشخص الثالث (فصائل أخرى من الحيوان أولا ، ثم الأشياء المتحركة في الطبيعة التي تصدر اصواتا تحاكيها للصيغة اللغوية - الاصل الجديدة) .

ويظهر من التحليل أن وظيفة الاتصال التي تؤديها الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي (الخاصة بالشخص الثالث والمستعملة في خبر غير ابتدائي) ضيقة جدا في الطور الاول لنشأة الكلام الانساني في مرحلتيه الاولى والثانية . وعلى الرغم من ذلك كان لهذه الصيغة دور هام تجلى في البدء باستخدام الاصوات في الكلام الانساني نتيجة محاكاة ١

للحيوان والطبيعة . كما كان لها دور هام آخر في بداية تكون التفكير الانساني تجلى في ادراك العلاقة بين الصوت والمدلول من جهة ، وفي تمييز الشخص الثالث (غير المتكلم وغير المخاطب) من جهة ثانية .

لذا فان الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي للشخص الثالث المستخدمة في خبر غير ابتدائي كانت - على الرغم من وظيفتها المحدودة في الاتصال - ضرورية في التطور الاول من نشأة الكلام الانساني . ولكن الحاجة الى التوسع في وظيفة الاتصال انتهي توديتها اللغة لقتضت - برأينا - وجود طور ثان في نشأة الكلام الانساني ظهرت فيه صيغة لغوية - اصل جديدة تتمتع بامكانات اوسع من الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي للشخص الثالث المستخدمة في خبر غير ابتدائي .

ونرى أن التطور الثاني في نشأة الكلام الانساني يتميز بما يلي :

1 - من الناحية الصوتية : الانتقال من المحاكاة الى عدم المحاكاة ، مما سمح بظهور صيغ لغوية تقوم على علاقة اصطلاحية بين الصوت والمدلول . ونرجح أن يكون التطور الثاني قد مر بمرحلتين :

المرحلة الاولى - كانت الصيغة اللغوية الاصل الجديدة تلفظ فيها في مقطع صوتي واحد .

والمرحلة الثانية - ظهرت فيها صيغة لغوية - اصل جديدة تلفظ في اكثر من مقطع صوتي .

2 - من حيث وظيفة الاتصال : توسع وظيفة الاتصال بالانتقال من الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي (الخاصة بالشخص الثالث المستخدمة في خبر غير ابتدائي) . الى صيغة شخصية مصرفة للفعل خاصة بالطلب (الامر) من الشخص الثاني (المخاطب) . ومهدت هذه الصيغة الجديدة للانتقال فيما بعد الى صيغة شخصية مصرفة للفعل خاصة بالشخص الاول تستخدم في جواب الطلب في خبر ابتدائي في الزمن غير الماضي (للحاضر والمستقبل) . هذا وتبقى الصيغة الشخصية المصرفة للفعل كلمة واحدة من الناحية الصوتية ، وتنيد من ناحية المعنى كلما تاما اي جملة .

3 - من حيث تلازم اللغة والتفكير : مع ظهور الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بالطلب (الامر) ، تم تمييز الشخص الثاني (المخاطب) . ومع ظهور للصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بجواب الطلب ، تم تمييز الشخص الاول (المتكلم) . وكان ظهور للصيغة الخاصة بالطلب يعني تحرر الصيغة اللغوية - الاصل الجديدة من الصفة الاولى من الصفات الموضوعية لاصل للكلام الانساني في التطور الاول (ان يكون مشخصا جدا ومحددا بحاستي السمع والبصر) . وكان ذلك بداية التطور من المحدد المشخص الى المجرد العام .

النتيجة : نستنتج من ذلك ان نشأة الكلام الانساني مرت بطورين :

التطور الاول - في الصيغة اللغوية - الاصل للكلام

(الحاضر والمستقبل) .

- 4 - الصيغة الشخصية المصرفة للفعل التي تستخدم في الاخبار (في خبر ابتدائي) في الزمن غير الماضي لبقية الاشخاص (الثاني والثالث) .

ب - بالنسبة للصيغة اللغوية - الاصل في الطور الثاني:

- 1 - الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بالطلب (الامر) للشخص الثاني والتي لا تقوم العلاقة فيها بين الصوت والمطلوب على المحاكاة ، بل تقوم على الاصطلاح .

- 2 - الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بجواب الطالب للشخص الاول (المتكلم) والتي تستخدم في الاخبار (في خبر ابتدائي) في الزمن غير الماضي (الحاضر والمستقبل) .

- 3 - الصيغة الشخصية المصرفة للفعل التي تستخدم في الاخبار (في خبر ابتدائي) في الزمن غير الماضي لبقية الاشخاص (الثاني والثالث) .

هذا وسنعمد في المقالة التالية الى استخدام المنهج التاريخي العلمي لدى دراسة المعجم العربي . وسنعرض على ضوء ذلك ، نظرة جديدة الى المعجم العربي تثبت أصالة اللغة العربية وتؤكد أن نظامها اللغوي يعكس جميع المراحل التي مرت بها نشأة الكلام الانساني .

الانساني توجد علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمطلوب نتيجة لمحاكاة أصوات الحيوان والطبيعة .
والصيغة اللغوية - الاصل هي الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي الخاصة بالشخص الثالث والمستمدة في خبر غير ابتدائي .

الطور الثاني - في الصيغة اللغوية - الاصل للكلام الانساني لا توجد علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمطلوب والملازمة بينهما اصطلاحية . والصيغة اللغوية - الاصل هي الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بالطلب (الامر) للشخص الثاني .

ونرى أن تطور الصيغة اللغوية - الاصل للكلام الانساني في بداية تشكل النظام اللغوي قد أخذ المنحى التالي :

1 - بالنسبة للصيغة اللغوية - الاصل في الطور الاول :

- 1 - الصيغة الشخصية المصرفة للفعل في الزمن الماضي الخاصة بالشخص الثالث المستمدة في خبر غير ابتدائي والتي تقوم العلاقة فيها بين الصوت والمطلوب على المحاكاة .

- 2 - الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بالطلب (الامر) للشخص الثاني .

- 3 - الصيغة الشخصية المصرفة للفعل الخاصة بجواب الطالب للشخص الاول (المتكلم) والتي تستخدم في الاخبار (في خبر ابتدائي) في الزمن غير الماضي